شرح قصيدة خليلي هذا ربع عزة فاعقلا

إن قصيدة " خليلي هذا ربع عزة فاعقلا" من القصائد الطويلة نسبياً والتي لن يسعنا أن نقوم بشرح جميع أبياتها في هذا المقال ولكننا سنختار لكم باقة من أبيات هذه القصيدة ونشرحها لكم فيما يأتي

خَليلَيَّ هَذا رُبعُ عَزَّةَ فَاِعقِلا قلوصَيكُما ثُمَّ اِبكِيا حَيثُ حَلَّتِ

وَمُسّا تُرابًا كَانَ قَد مَسَّ جِلدَها وَبيتا وَظِلاَ حَيثُ باتَت وَظَلَّتِ

وَلا تَيأَسا أَن يَمحُوَ اللهُ عَنكُما ذُنوبًا إِذا صَلَّيتُما حَيثُ صَلَّتِ

إن الفكرة العامة لقصيدة خليلي هذا ربع عزة فاعقلا هي تعلق الشاعر الشديد بمحبوبته ومحاولاته المستمرة للوصال بها التي كانت تصدّ بالهجر والتعفف والتهرب منه، وقد بدأ الشاعر كعادة الشعراء العرب بالوقوف على أطلال المحبوبة وذكر ديارها والبكاء على آثارها، حيث يقول الشاعر في هذه الأبيات مخاطباً صديقيه: يا صديقي هذه هي ديار محبوبتي عزّة، فاعقلا الإبل في هذا المكان وقفا على أطلاها وابكيا في هذه الديار التي حلّت بها المحبوبة، ولامسا تراب هذه الأرض الذي كان يمس جسدها وتظللا بالظلال التي كانت تستظل بها عندما كانت مقيمة في هذه الديار، وإذا صليتما في المكان الذي كانت تصلي به عزّة فقد يكون سبباً في أن يغفر الله لكما ذنوبكما.

وما كنت أَدري قَبلَ عَزَّةَ ما البُكا وَلا مُوجِعاتِ القَلبِ حَتَّى تَوَلَّتِ

وَما أَنصَفَت أَما النِساءُ فَبَغَّضَت إِلينا وَأَمَّا بِالنَوالِ فَضَنَّتِ

وفي هذه الأبيات يدخل الشاعر في وصف حالته النفسية بعد معرفته لمحبوبته عزة، فقد كان الشاعر عزيزاً قوياً قبل أن يعرفها ولم يكن يعرف قبل عزّة ما هي الدموع ولم يذق وجع القلب إلى أن رحلت عنه حتّى إذا ما ذهبت وابتعدت عنّي عرف ذلك الألم كلّه، ثم يخبر عن نفسه قائلاً: لم تكن عزّة منصفةً معي أبداً، فهي لم تصلني ولم تترك لي من محبة لدى بقية النساء فقد كرّهت وبغضت جميع النساء بي، ثم بخلت بالوصال والمحبة تجاهي.

فَقَد حَلَفَت جَهدًا بِما نَحَرَت لَهُ قُرَيشٌ غَداةَ المَأزَمينِ وَصَلَّتِ

أُناديكَ ما حَجَّ الحَجيجُ وَكَبَّرَت بِفَيفاء آل رُفقَةٌ وَأَهَلَّتِ

وَكانَت لِقَطعِ الحَبلِ بَيني وَبَينَها كَناذِرَةٍ نَذرًا وَفَت فَأَحَلَّتِ

فَقُلتُ لَها يا عَزَّ كُلُّ مُصيبَةٍ إِذا وُطِّنَت يَومًا لَها النَفسُ ذَلَّتِ

وهنا يعود الشاعر إلى تجديد عهده بالمحبوبة والتأكيد على تمسكه بها ورغبته بالوصال منها بعد كل ذلك الجفاء الذي وجده منها، فيقول: لقد حلفت بالله الذي تنحر له الناس في قريش وتصلي، سأظل أناديك وأطلب منك الوصال ما دام الناس يقدمون إلى مكة لأداء مناسك الحج، ولكن رغم كل تلك التضحيات والتنازلات التي يقدمها الشاعر لم يجد من محبوبته إلى الجفاء والبعد، يقول: وكانت عزة كأنها قطعت نذراً أن تقطع حبل الوصل بيني وبينها وتبتعد عني وقد وفت نذرها وقطعت ذلك الحبل فخاطبتها قائلًا يا عزّة إنّ كلّ مصيبة إذا ما استقرّت في النفس ضعفت وهانت لها.

وَلَم يَلقَ إِنسانٌ مِنَ الحُبِّ مَيعَةً تَعُمُّ وَلا عَمياءَ إِلّا تَجَلَّتِ

فَإِنَ سَأَلَ الواشُونَ فِيمَ صَرَمتها فَقُل نَفس حُر ّ سُلِّيَت فَتَسَلَّتِ

كَأَنّي أُنادِي صَخرَةً حِينَ أَعرَضَت مِن الصُمِّ لو تَمشي بِها العُصمُ زَلَّتِ

يعود الشاعر في هذه الأبيات إلى الحديث عن الحال التي وصل إليها من درجة حبه لعزّة، فيقول: إن الإنسان يكابد في العشق ويصارع ويقدم التضحيات ولا يكسب من كل ذلك ما يريح قلبه وفؤاده ويطفئ نار شوقه، فإذا سألني الواشون عن سبب مقاطعتي لها وابتعادي عن وصلها سأقول لهم إن نفس المحبوبة عزيزة غالية حرة أبية وقد تسلت بالصبر عني فأعرضت، وقد أصرت على إعراضها فكأنني أخاطب صخرة صمّاء وأطلب منها الوصال فتأبي ولا أجد منها إلا الصد والإعراض.

صَفوحٌ فَما تَلقاكَ إِلَّا بخيلَةً فَمَن مَلَّ مِنها ذَلِكِ الوَصلَ مَلَّتِ

أَباحَت حِمًى لَم يَرعَهُ الناسُ قَبلَها وَحَلَّت تِلاعًا لَم تَكُن قَبلُ حُلَّتِ

ثم يستمر الشاعر في الحديث عن صفات محبوبته وعنادها المستمر في الإعراض عنه فيقول: إن هذه المحبوبة بخيلة أشد البخل بالوصال حتى إنك ستمل من طلب الوصال منها مهما كنت شديد الصبر فإذا مملت من طلب الوصال منها ستمل منك أيضاً وتبتعد معرضةً عنك، فقد ذهبت إلى أماكن لم يذهب إليها أحد من قبل وسكنت في مواطن لم يحل بها أحد من قبلها.

فَلَيتَ قَلوصي عِندَ عَزَّةَ قُيِّدَت بِحَبلٍ ضَعيفٍ غُرَّ مِنها فَضَلَّتِ

وَكُنت كَذي رِجلَينِ رِجلٍ صَحيحَةٍ وَرِجلٍ رَمى فيها الزَمانُ فَشَلَّتِ

أُريدُ الثَواءَ عِندَها وَأَظُنُّها إِذا ما أَطَلنا عِندَها المُكثَ مَلَّتِ

ثم يكمل الشاعر وصف تعلقه بالمحبوبة وإصراره على الوصال منها فيقول: أتمنى أن أنزل بديار عزّة ويتم تقييد ناقتي بحبل ضعيف هزيل ثمّ تقطع الناقة الحبل وتضيع في الصحراء لكي تكون لي حجة في البقاء في ديار عزّة، وأنا في هذه الحالة سأكون مثل الرجل الذي له رجل صحيحة يريد أن يذهب بها ليبحث عن ناقته ويكمل طريقه ورجل أخرى مشلولة تمنعه من القيام ومغادرة ديار عزّة، فأنا أريد البقاء في ديار عزّة لأكثر وقت ممكن وأن أطيل البقاء كثيراً ولكنني أعلم أنني إذا أطلت البقاء عندها ستمل مني.